

تفسير ابن كثير

يخبر تعالى أنه إذا أذاق الناس رحمة من بعد ضراء مستهم كالرخاء بعد الشدة والخصب بعد الجذب والمطر بعد القحط ونحو ذلك { إذا لهم مكر في آياتنا } قال مجاهد : استهزاء وتكذيب كقوله : { وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً } الآية وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى بهم الصبح على أثر سماء كانت من الليل أي مطر ثم قال : [هل تدرون ماذا قال ربكم الليلة ؟] قالوا : الله ورسوله أعلم قال : [قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذاك مؤمن بي كافر بالكوكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذاك كافر بي مؤمن بالكوكب] وقوله : { قل الله أسرع مكراً } أي أشد استدراجاً وإمهالاً حتى يظن الطان من المجرمين أنه ليس بمعذب وإنما هو في مهلة ثم يؤخذ على غرة منه والكاتبون الكرام يكتبون عليه جميع ما يفعله ويحصونه عليه ثم يعرضونه على عالم الغيب والشهادة فيجاريه على الجليل والحقير والنقير والقطمير .

ثم أخبر تعالى أنه { هو الذي يسيركم في البر والبحر } أي يحفظكم ويكلؤكم بحراسته { حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها } أي بسرعة سيرهم رافقين فبينما هم كذلك إذ { جاءتها } أي تلك السفن { ريح عاصف } أي شديدة { وجاءهم الموج من كل مكان } أي اغتلم البحر عليهم { وطنوا أنهم أحيط بهم } أي هلكوا { دعوا الله مخلصين له الدين } أي لا يدعون معه صنما ولا وثناً بل يفرّدونه بالدعاء والابتهال كقوله تعالى : { وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً } وقال ههنا : { دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه } أي هذه الحال { لنكونن من الشاكرين } أي لا نشرك بك أحداً ولنفردنك بالعبادة هناك كما أفردناك بالدعاء ههنا قال الله تعالى : { فلما أنجاهم } أي من تلك الورطة { إذا هم يبغون في الأرض بغير الحق } أي كأن لم يكن من ذلك شيء { كأن لم يدعنا إلى ضر مسه } ثم قال تعالى : { يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم } أي إنما يذوق وبال هذا البغي أنتم أنفسكم ولا تضرون به أحداً غيركم كما جاء في الحديث [ما من ذنب أجدر أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر الله لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم] وقوله : { متاع الحياة الدنيا } أي إنما لكم متاع في الحياة الدنيا الدنيئة الحقيرة { ثم إلينا مرجعكم } أي مصيركم ومآلكم { فننبئكم } أي فنخبركم بجميع أعمالكم ونوفيككم إياها فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه

